التشافـــــــــي بالقـــــــــــــرآن

الأستاذ الدكتور أحمد القاضـــــي
وإيـــــــمـان أبو السعـــــــود القاضـــــــــي

بسم الله الرحمن الرحيم

(وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين)[123].
وإن لكم في القرآن لما يشفيكم[124].

الأثر الشافي للقرآن حقيقة مقررة نص عليها الله تعـالى في كتابه الكريم، وأوصى بها الرسول صلى الله عليه وسلم. وهذا الأثر الشافي له أوجه متعددة ومظاهر كثـيرة بـدأنا في السنوات الأخيرة نفهم بعضها، وما زلنا لم نسبر غـور أغلبهـا؛ ونسأل الله تعالى أن يزدنا فيها علماً. وفى هذه العجالة نذكر بعض أوجه الأثر الشـــافي للقـــرآن الـــتي ثبت لنا بالتجربة العلمية أثرها وفعاليتها.

1- الأثر الشافي للاستماع للقرآن:

ثبت بالتجربة المقارنة أن الاستماع إلى تلاوة القـرآن ينتج عنه تغـــيرات في عـــدد من الوظـــائف الحيوية في الجسم البشــري؛ والــتي يمكن قياســها ورصــدها إلكترونيــا. وهــذه التغيرات الفيزيولوجية تصاحب في العـادة عمليـات الشـفاء، وهى مضـادة للتغـيرات الـتي تصـاحب الحـالات المرضـية. وتظهر هـــذه التغـــيرات الفيزيولوجية الإيجابية عند من يفهم اللّغة العربية ومن لا يفهمها، وإن كانت التغيرات أعمق وأكثر وضوحاً حين يتوفر فهم معاني كلمات القرآن.

2- الأثر الشافي للرقية (أي اللمس مع قراءة القرآن):

ثبت عن طريقة التصوير الكهربائي (تصـوير كيرليـان) أن قـراءة القـرآن تحـدث تغـيرات إيجابيـة في مجـال الطاقـة الكهربائية المغناطيسية المحيطة بجسـم

123- سورة الإسراء آية: 82.
124- قول مشهور.

وأطراف القاريء، وثبت كذلك أن هذه التغيرات في المجـال الكهربـائي المغناطيسي للقـاريء تـؤثر تـأثيراً إيجابيـاً على المجال الكهربائي المغناطيسي للمقـروء عليـه، أو المـرقى. وهذه التغيرات بالتالي يكون لها أثر إيجابي شاف على صـحة المريض بإذن الله.

3- الأثر الشافي لبعض المفاهيم من القرآن والسنة التي تساعد المريض على التخلص من المشاعر السلبية:

ثبتت فعالية بعض المفاهيم من القرآن والسنة الشريفة في التخلص من المشاعر السلبية عند المريض. وقد ثبت بالتجربة العملية أن المشاعر السلبية المختزنة من أقوى العوامل التي تؤدي إلى تثبيط وظائف المناعة عند الإنسان. وثبت أن ضعف أو خلل وظائف المناعة عند الإنسان يؤدي إلى زيادة نسبة الإصابة بالأمراض المختلفة، ومنها ما يهدد الصحة والحياة. وبالتالي فإن الإرشاد النفسي لتعلم كيفية التخلص من المشاعر السلبية هو جزء أساسي في علاج الأمراض المزمنة والتي كان يظن أنها مستعصية على العلاج الشافي. وقد ثبتت فعالية الإرشاد النفسي المبنى على المفاهيم الإسلامية المنبثقة من القرآن، والسنة الشريفة، وهذا على المسلمين وغير المسلمين، لأنه يستند على مفاهيم تتناسب مع فطرة الإنسان، بغض النظر عن ملته. وإن كانت فعالية هذا الإرشاد النفسي تزداد مع زيادة عمق المفاهيم الإيمانية والروحانية عند المريض، وهذا أحد الأهداف المرجو الوصول إليها عند المرضى.

4- الأثر الشافي للسلوكيات الحياتية الإسلامية المنبثقة من التعاليم الإسلامية النابعة من القرآن والسنة الشريفة (ما يسمى بالطب الإسلامي التطبيقي أو السريري أو الإكلينيكى):

وبعد مراجعة نتائج العلاج طويلة المدى (أكثر من خمس سنوات)، تبين أن استعمال الطب الإسلامي السريري في علاج الأمراض التي فشل الطب الحديث في تقديم العلاج الشافي لها؛ قد نجح نجاحاً كبيراً يفوق نجاح علاجات الطب الحديث أضعافاً مضاعفة. وهذا نمط ثابت وراتب بالنسبة لجميع الأمراض المختلفة؛ وإن كانت نسبة ودرجة النجاح متفاوتة من مرض لآخر.

وهذا النجاح عند المرضى المسلمين وعند غير المسلمين على السواء. وهذا مظهر آخر من مظاهر الإعجاز

العلمي في القرآن والسنة، إضافة إلى ما ظهر في السابق في مجال الإعجاز المذكور.

ولقد فرقت العقيدة الإسلامية بين أفعال العباد وإرادتهم، وبين إرادة المولى عز وجل. وقد أوضحت العقيدة الإسلامية بتفصيل متناه في الدقة العلاقة بين الإنسان وإرادته وبين خالقة جل وعلا...

وأحد أبواب الإيمان بالله عز وجل هو التسليم بأن الشفاء والنفع والضر كل ذلك من عند الله عز وجل دون الإخلال بما يملك الإنسان من أفعال يستجلب بها منفعة أو مضرة أو مرضاً أو شفاء يحدث بإذن الله.

ولعل الأطباء المسلمين الذين كانوا في عهد النهضة الإسلامية يدرسون علم التوحيد والفقة إلى جانب دراستهم للعلوم المادية؛ نقول: كان هؤلاء الأطباء الأوائل على دراية وعلم في العقيدة الإسلامية تجعلهم يتعاملون مع المادة تعامل المدرك الواعي...

ولهذا الفهم الصحيح للعلاقة بين الروح والجسد عند أطباء المسلمين، وبين صفاء وردهم من العقيدة فقد المسلمون دافعهم للعلم المادي، كما فقدوا تميزهم بالمعرفة والحقيقة لمراد الله سبحانه وتعالى في خلق الإنسان فابتعدوا عن الغايات النبيلة التي من أجلها أمر المسلمون بالتداوي، ولم يربطوا بين المادة كجزء هام في خلق الجسد الإنساني وبين الروح كمحرك لهذا الجسد...

ومع تقدم سنوات التخلف على العالم الإسلامي انقسم المسلمون إلى قسمين كبيرين، أحدهما مندفع في اتجاه الحضارة المادية البحتة لا يؤمن إلا بما يأتي منها، ولا يعترف بأي علم إلا إذا كان بلسان هذه الحضارة.

والقسم الثاني انفصل بنفسه عن أبواب العلم المادي، وظن أن الدين هو بالتزام العبادات والانشغال بأمور الآخرة، تاركاً الدنيا لأهلها كما يقول.

وبين هذين الفريقين الكبيرين توجد هناك قوى أخرى ضعيفة أو متفرقة، وهم من أبناء المسلمين الذين يعتقدون أنهم أولى من غيرهم بهذا العلم المادي كما أن الأخذ به أحد أهم مقاصد الشريعة الإسلامية. وبالتالي وجب عليهم أن يأخذوا بهذا العلم وجوب كفاية. وأن يتقدموا فيه، بل ويتقدموا على غيرهم...

إن هؤلاء القلة الذين تزداد كثرتهم في السنوات الأخيرة بفضل الله عز وجل يحاربون على ثلاث جبهات: أولها جبهة

أهل الكفر الـذين لا يعـترفون بمـيزان غـير مـيزان المـادة، وجبهة أبنـاء المسـلمين الـذين يسـخرون من تـدينهم، وجبهة الآخرين من أبناء المسلمين الذين يهزؤون بعلمهم المادي...

إن نـدوة التشـافي بـالقرآن الـتي نعيش في هـذه الأيـام تحت ظلالها هي إحـدى المحـاولات الجـادة الـتي نعتقد أنها ستحقق الرابط الصحيح-كما نتمنى- بين العلم الـديني والعلم المادي.

وإذا كان فقهاء هذه الندوة قد تكلموا في شـرعية الـرقى بالقرآن الكريم وبالسنة النبوية، أو بما يصح من ألفاظ طيبة، وبينوا جواز حكمها الشرعي، ثم عرجوا بعد ذلك بشـيء، من التفصـيل نحو شـروط الرقية والـراقي، ومن تُلقى عليه الرقيـة، وأوضـحوا الحكم الشـرعي فيها فـإنهم في الحقيقة وضعوا الأطباء في بداية الطريق- فتحوا لهم باباً من أبـواب المندوب-على أقل تقدير. حتى يبـدأ الأطبـاء المسـلمون في دخـول هـذا البـاب، والبحث في جوانبه بما يمكن أن يحقق للمسلمين فائدة صحية لا يسـتغني عنها المرضى ...مصـداقا لقـول رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم: "من اسـتطاع أن ينفع أخاه فليفعل"[125].

إن مهمة الطب وضـوابطها من الناحية الإسـلامية قد وضعت لها آداباً قننها علماء المسـلمين بمجهـودات المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية. فإذا تم الاتفـاق كما أظنه فسـيكون على أن الرقية الشرعية هي إحدى وسائل العلاج التي يقرها الإسلام بنص ما أخرجه البخاري وغيره عن أبي هريـرة رضى الله عنه، عن النبي صلى الله علية وسلم قال: "ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء"[126].

وفى رواية لمسلم: " لكل دواء داء فإذا أصيب دواء الداء برأ بإذن الله"[127]...

ولعلنا كأطباء هنا، لا نملك إلا أن نفرق بين التـداوي بالـدواء، وبين الـرقى الشـرعية؛ وإن كـان كلاهما مما جعله الله من الأسباب التي يتم الشفاء من المرضى بها. وفـى هـذا روى الإمام الترمذي أن سائلاً سأل رسول الله صلى

125- أخرجه مسلم في صحيحه: كتـاب السـلام: بـاب استحباب الرقية من العين والنملة والحمه والنظرة ح(2199) وأحمد في مسـنده (3/382) والـبيهقي في الكـبرى: كتـاب الضـحايا: بـاب إباحة الرقية (9/348) قـال الألبـاني: وفي الحـديث اسـتحباب رقية المسـلم

لأخيه المسلم بما لا بأس به من الـرقى، وذلك ما كـان معناه معروفا مشروعاً، وأما الـرقى بما لا يعقل معنـاه من الألفاظ فغير جائز-انظر الصحيحة ح(472).

126- أخرجه البخاري في صحيحه: كتـاب الطب: بـاب ما أنــزل الله داء إلا أنــزل له شــفاء ح(5678) وأحمد في مسنده (1/377).

127- أخرجه مسلم في صـحيحه كتـاب السـلام: بـاب لكل داء دواء واســـتحباب التـــداوي ح(2204) وانظر تحفة الأشـــــراف ح(2785) وأحمد في مســـــنده (3/335).

الله عليه وسلم فقال: "يا رسول الله أرأيت رقية نسـترقيها، ودواء نتداوى به، وتقاة نتقيهـا؛ هل تـرد من قـدر الله شـيئاً؟ فقال صلى الله علية وسلم: هي من قدر اللـه"[128]. وبـرأيي أن الفــرق بينهما فرقا بين الكرامة والسـنن، فـإن التـداوي الطـبي المـادي يصـيب سـننا ثابتة أوجـدها الله في صـلب الخلق، وبالتالي يغلب على هـذه السـنن التفاعل مع الـدواء. أما الرقية فهي كرامة يهبها الله سبحانه وتعـالى لمن يشـاء، فتُحقق الشفاء بدون أسـباب ظـاهرة لنـا. وقد وصف علمـاء المــادة العلم الــدوائي بأنه إلــزام وجــوب تحقيق النتيجة وتكرارها بإيجاد المؤثر. فإذا وضعت مغناطيساً بجـانب إبـرة، فيجب أن ترتفع الإبـرة إلى هـذا المغنـاطيس. وإذا سـلطت إشعاعاً في مسـتوى معين على الجلـد، فيجب أن يحمر هـذا الجلد. ولو كررت هذه العملية مئـات المـرات لحصـلت هـذه الاستجابة بشـكل قطعي في كل مـرة. فهـذه السـنن الثابتة التي تخضع لمعايير المادة، والتي خلقها الله بداخل الإنسـان أو في الطبيعة هي لب الحضارة المادية. وهي التي نجد فيها قصوراً كبـيراً بين المســلمين للأســف الشـديد. فهـذا العلم المادي فيه أسرار عظيمة ما جهل منه أكبر مما علم. وطرق معرفته لا تتم إلا بالجهد والانشغال به.

لهــذا تجد أن بــاع المســلمين فيه قليل لأســباب كثــيرة ومتنوعة...

أما الرقى الشرعية، فإنها قد تحـدث وقـد لا تحـدث. فهي كالدعاء قد يستجيب اللـه لهـا، أو يقـع بهـا ضـرر آخـر أو قـد يؤجلها لوقت آخر. ولهذا فإن الرقى الشرعية تكون في رأيي حين لا يكــون هنــاك متفــق عليــه، أو حين يكون هناك موانــع صحيــة أو اقتصادية تمنع استخدام هذا

128- أخرجه الترمـذي في سـننه: كتـاب الطب: بـاب

الـرقي والأدوية ح(2072) وقـال: هـذا حـديث حسن صـحيح. وابن ماجة في سـننه: كتـاب الطب: بـاب ما أنزل الله داء إلا أنـزل له شـفاء ح(3437). وأحمد في مسـنده (3/421). قـال الهيثمي في المجمع (5/85): رواه الطـبراني والحـرث لم أعرفه وبقية رجاله رجـال الصحيح غـير أبي خرابـة. وضـعفه الألبـاني في ضـعيف سنن ابن ماجة ح(749).

الدواء. عند ذلك، يلجأ إلى من بيده الشفاء باسـتخدام الرقية الشـرعية. وفي رواية أبو داود في سـننه، عن سـعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال: "مرضت فعادني النبي صلى الله عليه وسـلم فوضع يـده بين ثـديي حـتى وجـدت بردها في فـؤادي. أي في صـدري فقـال: يا سـعد إنك رجل مفـؤود أي مـريض بصـدرك، ائت الحـارث بن كلـدة أخا ثقيف فإنه رجل يتطبَّب أي يتعاطى الطب-وله خبرة به"[129].

في رأيي هذا الحديث يلزم المسلمين بالبحث عن الطب الذي جعله الله سبباً من أسباب التشافي. فإذا وقف الطب، أو اختلف، أو صعب الوصول إليه فـإن تـأثيرات الـرقى نافعة بإذن الله ...

وقد اعترف أصحاب العلم المـادي في السـنوات الأخـيرة بمثل هـذه التـأثيرات الروحية على المـادة. فقد قـال "روجر سبري" الحاصل على جائزة نوبل بأهمية الربط بين المفاهيم الروحية والعلوم.

ورغم أن مثل هـــــذه المعرفة لم تنل حقها من البحث العلمي لأسـباب سياسـية واجتماعية وفلسـفية كثـيرة ومعقـدة؛ إلاّ أنها بـدأت في السـنوات الأخـيرة تجد لها حظـاً أوفر بين العلمـاء والبـاحثين وبـدأ الخـوف من لمس هـذه العلاقة يتلاشى في نفـوس العلماء الـذين ظلت عقـدة التعـارض بين الـروح والعلم قابعة في أنفسهم عقوداً طويلة.

ونحن هنـا لابـد أن نتطـرق بشـكل مـا إلى قـدرة الجسـم على مكافحة المرض حـتى يمكننـا أن نتفهم السـنن الماديـة الـتي يعمـل بهـا جسـم الإنسـان، وحـتى نـدرك أن الجهـاز المناعي الذي إذا اختل أصاب الجسم علة هو جهاز معقد في التركيب، عظيم في الوظيفة، يعمل بصـورة ذاتيـة في سـنن أوجدها الله فيه، يمكن لكل من اجتهد في العلم كافرا كان أو مسلماً أن يصل إلى قواعد تلك

129- حديث ضعيف أخرجه أبو داود في سننه: كتاب الطب: بـــاب في تمـــرة العجـــوة (3875) ضـــعفه

الألباني في ضعيف سنن أبي داود ح(834).
السـنن، ويـدرك أبعادهـا. فالجهـاز المنـاعي يتكـون بشـكل أساسي من خلايا ليمفاوية بشـقّيها خلايا "بـاء"، وخلايا "تي" ويتكـون أيضـاً من الخلايا الآكلة ولعل الثقل الأكـبر يقع على الخلايا الليمفاوية حيث تشــكل خلايا "بــاء" ما يقــارب من 15% من الخلايا الليمفاوية الســـــابحة في الـــــدم. وهى المسئولة عن المناعة الخلوية التي تصنع المضـادات الخاصة ضد الأجسام الغريبة.

أما الخلايا "تي"، فهي تشكل ما مقـداره 70% إلى 80% من الخلايا الليمفاوية السابحة. وهى مسئولة عن ردود الفعل المناعية الخلويــة، وأيضــاً مســئولة عن تنظيم الوظــائف المناعيــة. ولو لمســنا بداية علم المناعة لوجــدنا أن الخلايا "بـاء" تصـنع مـواد جلوبيـولين المناعيـة، والـتي تنقسم إلى أقســام خمسة أساســية أكــثر من الــIGG"". وتــتراوح أعمارهم بين 230 يوم وكل عنصر من الجلوبيولين المنـاعي يــتركب من نــوعين من سلســلة عديد البيبتيــد؛ أحــدهما السلسـلتين الثقيلـتين، وثانيهما السلسـلتين الخفيفـتين. وكل من السلسلتين يرتبط ببعض بواسطة رابطة ثنائية الكبريتيد، وأيضـاً برابطة غـير تسـاهمية. ويعتـبر الـ"IGG" هو أكـثر الجلوبيولينـات المنـاع وأخفهـا، فهو يصل إلى داخل الـرحم عـابراً المشـيمة. وقد تم التعـرف على عـدة أنـواع من " IGM"و "IGA"و "IGE" أمـــاّ الخلايا الآكلة فهي تُكـــوِّن 70% من خلايا كـرات الـدم البيضـاء، ويـتراوح عـددها بين 10000 إلى 5000 خلية في كل مليمـــتر من الـــدم. وهى خلايا متحركة تقـوم بالانتقـال خلال شـعيرات الـدم المتناهية في الدقة، وابتلاع البكتريا، واستخدام إنزيمات هاضــمة يوجد فيها الليزوزوم لتحطيم البكتريا...

وهـذه الخاصـية لحماية الجسم بطريقة مباشـرة تشـكل الجزء البسيط على قدرة الجسم لمقاومة الأمراض. كل هذه الشــبكة من المضــادات المناعية المعقــدة-والــتي تتعمق بالتخصص لتصل إلى حد التفرد الخلوي-تعمل بشـكل منتظم ودقيق لحماية الجسد الحي من غلبة المضار العضـوية وغـير العضـــوية المحيطة بـــه. ولكن عنـــدما تنتصر البكتريا على القـدرة المناعيـة، فإنها تـؤدي إلى الإصـابة بـالمرض. وهـذه الإصــابة لا تشل حركة المقاومــة، بل إنها تثيرهــا، فــيزداد الصراع بين الجسم وبين البكتريا أو الفـيروس. ويبـدأ الجسم

في سلسلة معقدة بتخليق مواد مضادة لهذا الجسم الغـريب حتى يهزمه وينتصر عليه.

وقد يحتـاج الجسم إلى الـدواء في هـذه المرحلة حـتى يتمكن الجسم من هزيمتـه. أو قد يحتـاج الجسم إلى الـدواء في هــذه الفــترة للتخفيف من آثــار المعركة بين الجهــاز المنـاعي وبين الغـازي والـتي تظهر على شـكل حـرارة، أو أوجاع، أو ما شابههما من الأعراض...

فالـدواء هنا له وظيفة محـددة، وتأثيراته معلومة ومقيسه بدقة كبـيرة، ولها أصـول علمية متفق عليها بين العلمـاء، ولا يحق إعطاء هذا الـدواء إلاّ لمن لديـه علم بـالمرض والـدواء، وهو الطبيب...

من هذا كله نخلص إلى أن التطـبيب عملية تخضع لقواعد وأصــول علمية مادية تحقق نتــائج متفقا عليها بين العلمــاء. وهو أمر يختلف في المفهوم الإسلامي عن الشفاء، وإن كان التطبيب يتبعه عادة الشـفاء إلا أن النظـرة الإسـلامية جعلت الشفاء حقاً إلهياً، ونحن كأطباء مسلمين نتوقع دائماً أن يأتي الشـفاء وباسـتخدام الـدواء المناسـب، لأننا نعلم أن ذلك من قدر الله كما ذكرنا في الحـديث الـذي رواه الإمـام الترمـذي وغيره.

من هنا فإننا أيضـاً نـؤمن أن الرقية يمكن أن تكـون ذات فائـدة للمرضى إذا اسـتفيد منها بالطريقة الـتي يتفق عليها الفقهاء بشروطهم، وبإضافة ما نـراه كأطبـاء من شـرط آخر وهو استخدامها في حالة تعذر الدواء المتفق عليه لأي سـبب كان. أما استخدام الرقى للمنع من وصول الداء، فهـذا أمر لا بأس به، ويمكن برأي الأطباء أن يستخدم في الطب الوقائي لأنه من بركات الدعاء التي يؤمن بها المسـلمون. وإننا نعتقد في النهاية أن على المسلمين أن يستخدموا الرقية الشرعية في أبواب ثلاثة:-

في الطب المنـــاعي؛ حيث يتم الـــدعاء والرقية لمنع الضرر، كمن يقول: "باسم الله الذي لا يضر مع اسمه شـيء في الأرض والسماء وهو السميع العليم"[130]، ليتفادى الضرر عن الحيوانات، أو من لسعات الحشرات مثلاً...

أمـا البـاب الثاني، فهـو اسـتخدامها في التشـافي حسب ما يقره الفقهاء والأطباء.

أما النوع الثالث؛ فهو استخدام الـرقى في الوقايـة، وهو يحتـاج إلى مزيد من الأبحـاث، لأننا كأطبـاء لاحظنـا-ومازلنا نلاحظ-أن قوة الإيمـان وقـراءة القـرآن تسـاعد الجسم على

مقاومة المــرض. ومن هنا نقــول أن اســتخدام القــرآن في التشافي في نظر الأطباء يكون بتعميم التشافي بما يزيد عن مفهوم الرقية. فيصبح هناك علم للطب الإسلامي قــائم على مراكز علاجية تحت إشـراف أطبـاء مسـلمين ثقـات عـالمين بــالعلم المــادي ولــديهم علمٌ شــرعيٌّ، يقومــون بــالعلاج المشترك: المادي بالأدويـة، والـروحي بالرقيـة. ويمكن بهـذه الطريقة تحقيق نمط مشترك من العلاج أظن أن العـالم كله في حاجة إليه كما أشرنا في بداية المقال إلى مقولة "روجر سبري".

ويجب أن تخضع هـذه المراكز لإشـراف الدولـة، أو تلحق بالمستشفيات، وتخضع للبحث العلمي المتعارف عليه؛ حــتى يمكن علمـاء المسـلمين أن يحـاجوا وفق المعـايير والقواعد المتعارف عليها...

130- أخرجه أبو داود في سننه: كتاب الأدب: باب ما يقول إذا أصبح ح(5088) والترمذي في سننه: كتاب الدعوات: باب ما جاء في الدعاء إذا أصبح وإذا أمسى ح(3399) وقال: هذا حديث حسن غريب صحيح. وابن ماجة في سننه: كتاب الدعاء: باب ما يدعو به الرجل إذا أصبح وإذا أمسى ح(3869) وانظر تحفة الأشراف ح(9778) وانظر صحيح سنن ابن ماجة للألباني ح(3120) وتمام الحديث: وكان إبان قد أصابه طرف من الفالج، فجعل الرجل ينظر إليه فقال له إبان: ما تنظر إلى؟ أما أن الحديث كما قد حدثتك ولكني لم أقله يومئذ، ليمضي الله على قدره.